- ٧ -

قصص الفرسان والأنظمة العسكرية

الفروسية هى أكثر مظاهر روح العصور الوسطى روعة وسموا ، اذ لم تكن هناك فضـــائل قد مجـــدت أكثر ، ولا مآثر تكررت روايتها ، ولا صور أكثر تأثيرا من فضائل مآثر وصور أولئك الفرســان النبلاء · فالكلمة تثير صورة عالم بأثره ، له أسلوب حياته ونظامه الخاص بالتربية ومجموعة من وجهـات النظر وقواعد السـلوك ، كمـا توحى بالماديات المحيطة من بيوت الضياع والحصون والقلاع · وقد ســـادت أخلاقيات الفروسية لأكثر من ثلاثة قرون ، ولا تكاد توجد فكرة أخرى فى الثقافة الغربية ، فيما عدا السلام العالمى ، استطاعت ان تنافس حيوية الفروسية على مدى مثل هـــذه الفترة الطـــويلة من الزمان · بل انه حتى عندما اختفت الفروسيـة كايديولوجيـة متميزة لطبقـة بعينهـا ، ظلت مثلهـا ومبادؤها باقية · وعندما تحجرت بعض هـــذه المثل وجمدت وأصبحت طقوسا بلا روح انتهى بعضها الآخر الى مجرد روابط طنانة مفتعلة على حين تكومت مثل أخرى فى أهـــرام من الرموز لم تلبث ان انهارت تحت وطأة ثقلها ، ومع ذلك ظلت الفروسية تحيا فى وجدان الرجل الجنتلمان وفى مراســـم البلاط وقواعد السلوك التى تناسب المجتمع المتحضر ، وحين خلعت الفروسية ثيابها الخارجية الموشاة ، وفقدت مكانتها وخاصيتها الاستقطابية عند الطبقة الحاكمة ، ظلت الفروسية قوة حيـــة تغلغت فى المجتمع ككل ·

والفروسية التى يمكن وصفها أحسن وصف بأنها نظام من الأفكار لدى الطبقة الوراثية المحاربة فى العصـــور الوسطى ، لم تكن من خلق

الصليبيين بقدر ما كانت الحروب الصليبية من نتاج الفروسية · ومع ذلك فان الذهاب فى حملة صليبية أصبح جزءا من مثل الفروسية السامية ·

وتعبير الفروسية الذى اكتسب صفة رسمية ، عبارة عن مجموعة من قواعد السلوك ، وجدت على مدى عدة قرون قبل تدوينها وتقنينها ، والحقيقة ، أنه حين بدأ التقنين عند منعطف القرن الرابع عشر ، كان كان نظام الفروسية يقترب من مرحلة نهايته · بيد أن التعبير الأدبى عن المثل الفروسية ، على شكل أساطير تدور حول البطل المسيحى النبيل كان معاصرا لفترة الحروب الصليبية الكلاسيكية أى الحروب التى تمت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وعلاوة على هذا ، فان أكثر مظاهر مثل الفروسية ، وهو تطوير النظم العسكرية ، كان هو الآخر من أكثر ابداعات الحروب الصليبية والوجود اللاتينى فى الشرق أصالة ·

والقانون غير المكتوب الذى ينظم سلوك الطبقة العليا فى مجتمع العصور الوسطى (أى الطبقة المحاربة) يضرب بجذوره فى المصادر الجرمانية القديمة التى كانت معروفة وشائعة لدى كل الطبقات المحاربة فى المجتمع القبلى · وكان ذلك قانونا يمجد ويثنى على فضائل الشجاعة والولاء · وكانت الشجاعة والمهارة الكبيرة فى استخدام السلاح هى الفكرة الرئيسية فى الملاحم الجرمانية الباكرة ، سواء فى القارة أو لدى الانجلو سكسون · ولكن حتى فى تلك المرحلة الباكرة ، كانت القوة البدنية والجسارة والمهارة فى استخدام السلاح والخداع فى المعارك مصحوبة بضرورة الولاء والعصبية · فالولاء للرئيس ، سيد الحرب وقائد المعركة والعصبية مع رفاق السلاح كانت القواعد العادية التى تحكم المقاتل · ومن الممكن اقتفاء أصول بعض هذه الخصائص الى ثلاثمائة سنة تقريبا قبل الغزوات الجرمانية وذلك فى وصف تاكيتوس

Tacitus لقبائل جرمانيا المشاغبة · وقد ساعدت الغزوات الجرمانية ، أو الهجرات الكبيرة التى غيرت خريطة العالم المتحضر فى فجر العصور الوسطى ، ساعدت على تقوية وتدعيم مبادىء المحارب الجرمانى الجسور ومثله · فقد اختفت القيادة الفردية البطولية ابان الغزوات الا أن المثل ظلت باقية · وربما يكون الحرس الخاص للملك أو القائد قد أصبح مستودع هذه المثل التى لم تكن احتكارا لطبقة بعينها ، وذلك لأن الطبقة النبيلة التى برزت الى الوجود كانت طبقة نبلاء فى خدمة الملك أو السيد الكبير ·

ولم يحدث الا فى القرن التاسع والقرن العاشر أن صارت الحرب وقفا على طبقة خاصة وبذلك انتزعت من جماهير العامة · ومنذ ذلك الوقت انحصرت مثل المحارب فى جماعة من الصفوة التى أصبحت وراثية تقريبا عند مطلع القرن الحادى عشر · وقد ساعدت الوراثة على ظهور عناصر جديدة خلال عصر تشكيل مثل الفروسية · فالفخر بمآثر الأجداد قد خلق مفهوم تقاليد العائلة وأسطورة الأسرة النبيلة · وبينما كان أحد العامة يستطيع أن يدخل فى الطبقة النبيلة عن طريق اثبات جدارته من خلال عمل من أعمال الشجاعة الا أن هذا كان مثالا استثنائيا وليس القاعدة فى التغير الاجتماعى · أما طبقة النبلاء نفسها ، التى كانت مستقلة عن التطور المقابل للنظام الاقطاعى ، فقد كانت ذات بناء هيراركى على قمته أمير المقاطعة أو الملك ، أما النبلاء فى المستويات الأدنى ، وصولا الى قاعدة الهرم ، فكانوا يعبرون عن مثلهم من خلال الولاء للأسرة الحكمة المحلية ، وهى فكرة اقوى بكثير من الولاء للملكيات الاقطاعية الصاعدة · وقد وجد هذا البناء الجديد للمجتمع ومثل صفوته المحاربة التعبير عن نظامه فى التبعية الاقطاعية وفى علاقة السيد الاقطاعى بالفصل · وقد أصبحت هذه العلاقة هى بمثابة الرابطة العاطفية التى ضمنت التماسك فى عالم مضطرب ·

وعلى الرغم من أن الصيد والقتال كانا هما الشاغلين العاديين لتمضية وقت النبلاء فان فترات السلم كانت تتيح الفرصة للقاءات الاجتماعية غير لقاءات الجيش المحارب أو جماعة الصيد · ففى هذه اللقاءات ـ غالبا فى الأعياد أو لانجاز الأعمال ـ فى بلاط السيد أو فى القلعة يتم تبادل الأسلحة ببعض الحلل من الكتان أو احيانا من الحرير والتفتاه الثمينة المجلوبة من الشرق على أيدى التجار الايطاليين · وفى هذا المناخ الجديد ، بدأت تتطور قيم جديدة ، على حين ظلت القيم القديمة باقية · وأكثر التعبيرات دلالة على هذا التطور هو ظهور المرأة فى ردهات القلعة ليس كخادمات أو مشرفات ، ولكن غالبا كمركز للحياة الاجتماعية وبؤرة للحياة المنزلية لدى النبلاء ·

لقد أصبحت العائلة النبيلة الكبيرة الاطار الرئيسى لحياة الفصل · وحتى اذا لم يكن الافصال أقارب من دم واحد ، فانهم كانوا يعتبرون جزءا من الأسرة النبيلة وقد أضيفت العلاقات الأبوية الى العلاقات القائمة أساسا على الولاء الاجتماعى · وكانت رابطة الولاء لمجموعة المحارب السابق تظل قائمة وطيدة غير منفصمة · ولكنها الآن تعنى ما هو أكثر من ذلك ، اذ أنها خلقت « معنى الانتماء » فالواحد يعطى من ذاته ومن عائلته ومن املاكه ، ومن قدراته وعواطفه · ومهما كانت هذه العلاقات أبوية فى مظهرها الا أنها لم تستدع التنازل لأن التعهدات فى كليتها كانت تعهدات متبادلة · فالسيد مدين لرجله أو تابعه بقدر ما يدين الرجل لسيده ـ فيما عدا التبجيل ـ وقد كان هذا التعبير المستخدم لتعريف نوعية هذه العلاقة · وقد كانت هذه العلاقة أكثر عمقا من تلك العلاقة التى عرفها العصر السابق · ذلك أنها كانت تعكس نمطا جديدا من العلاقات الانسانية ، تلك هى علاقات الأسرة الاقطاعية الكبيرة ، التى يتحمل المرء فى ظلها مسؤولية الحرب من أجل الآخرين وليس فقط فى لحظات الحرب المحرجة ·

وعلى الرغم من أن هـذا الشكل الجديد من العلاقات كان يضرب بجذوره بعيدا فى أعماق الماضى ، فانه سرعان ما خلق مجموعة من القيم وانماط السلوك الخاصة به · اذ أن التجمع فى البلاط أدى الى ظهور فن المجاملات وهو السلوك المناسب لوجود النساء اللاتى صرن سيدات آنذاك · واذا ما استعرنا مصطلحات النظام الاقطـاعى فانهن أصبحن dominae أو فى تعبـير آخـر Les dames · اذ كـن يـزين الاستقبالات فى البلاط ويجلسن على رأس المآدب ويضفن الرونق والبهاء على الاحتفـالات · وسرعان ما لعبن دورا رئيسيا فى أكثر مظـاهر الفروسية روعة وهو المبارزات أو المبـاريات · وهكذا ظهر الى الوجود عالم جديد من السلوك والأحاسيس وأذواق فى أورقة القلعة الاقطاعية فى أوربا العصور الوسطى · فالأروقة المظلمة الكئيبة التى كانت تنار بأضواء المشـاعل التى تلقى بظلالهـا والتى تفـوح منهـا رائحـة الوشيك على الوجبات الهائلة التى ينكب عليها المحاربون فى نهم ـ هذه الأروقة صارت مليئة بالضـوء والضحكات · والمطرب المتجول أو الشـاعر الذى كان ما يزال حتى ذلك الحين يغنى للبطولة ومهارة الأبطـال فى اسـتخدام السلاح ، وقتالهم الضارى وشهيتهم النهمة ، أخذ يقدم موضوعات جديدة فيما يقدمه · اذ أخذ يتغنى بالحياة والحب ، والطبيعة والشباب · وصار شاعر الملحمة البطولية هو المغنى المتجول أو التروبادور Troubadour . وتهذبت صورة البطل البربرى العملاق ، كما صـارت المشـاعر الجياشة كالتفانى فى الحب والاخلاص موزعة ما بين السيد الاقطاعى وسيد القلب أى من يملكه ·

ومع غروب شمس القرن الحادى عشر ، خضعت صـور الحروب والقتـال لتعـديلات جـوهرية فأعمـال نيبيلونج Nnbe lungs ، وماثر بيـوولـف Beowulf ، ومعارك القادة والزعماء الحربيين للقبائل ، اتخذت منذ تلك الحين معنى جديدا كان بمثابة البشير بروح الحركة الصليبية

فقد حدد مجرى القتال فى اتجاه بعينه ، فالحرب الفوضوية المستمرة بين الجيران ، الأعداء ، قد كبح جماحها بفعل ايديولوجية جديدة لا تسمح لأحد ان يحارب جارا مسيحيا أو يهاجم بغية الثأر أو تحقيق المجد · وعلى أية حال ، فقد تمثل التحول الحقيقى فى أن الحرب منذ ذلك الحين فصاعدا ، لم تجد قبولا فحسب بل بوركت وشجعت اذا ما كان لها هدف أخلاقى · اذ ان الكنيسة أخذت تعارض أى نوع من اراقة الدماء التزاما منها بتعاليم الكتاب المقدس · وعلى الرغم انه منذ عصر أوغسطين وجدت الحرب مبررا لها فى مبـــدأ الدفاع عن النفس أو الحرب العادلة ، فان الكنيسة شجبت النشاطات العسكرية من حيث المبدأ · بيد أن مثلها كانت قليلة الجدوى أو لم تكن ذات جدوى حين غـــزا البرابرة الامبراطورية الرومانية وأخذت القبائل المتصارعة تقتل بعضها الأخرى · وحتى عندما استعادت أوربا قدرا من الاستقرار تحت حكم شارلمان ، لم تفعل الكنيسة شيئا سوى اعادة طرح موقفهـا السلبى من اراقة الدماء · وفى القرن التاسع ، دعا البابا المحـــاربين المسيحيين الى الدفاع عن روما ضـــد المسلمين الكفار الذين استولوا على البحر المتوسط وأقاموا رؤوس معابر على الأراضى الأوربية فى اسبانيا وفرنسا وصقلية · الا ان هـــذا كان موقفا استثنائيا ، ولم تغير موقفهـــا العام · وفى القرن الحادى عشر بدأت حملة شعبية لادانة تجاوزات النبلاء · وحوالى الوقت نفســـه ، على أية حال ، وقبل الحملة الصليبية الأولى بثلاثة أجيال تقريبا ، حدث تحول ملحوظ فى موقف الكنيســـة ، أو على الأقل فى موقف بعض من يمثلونها · ولم تكن هـــذه هى المرة الأولى أو الأخيرة التى تعدل فيها الكنيسة من رأيها لتضفى صفة الشرعية على أمر واقع · فقد كانت على استعداد لقبول واستيعاب النظام القائم فى المجتمع ، على الرغم من أنها أملت شروطها الخاصة لاستسلامها الجزئى · اذ ان الكنيسة كانت على استعداد لمباركة الحرب والمحـــاربين اذا استطاعت ان تحدد دوافعهم وأهدافهم ·

وحسب هذا المفهوم الجديد ، كان الرجل المحارب أو « رجل الدماء » منوطا بوظيفة اجتماعية : هى ان يدافع عن الفقراء والأرامل واليتامى · ومرة أخرى لجأت الكنيسة الى مبادىء الكتاب المقدس واشترطت ان تكون الحرب من أجل سبب عادل ، مثل حماية الضعيف من عدوان القوى · وهكذا فان الدافع البدائى الى القتال قد وجه ليصبح ذا فائدة اجتماعية · وحين طبق هذا على الظروف القائمة ، كانت هذه فكرة ثورية· ذلك لأنه فجأة ، أصبحت طاقات المحارب غير المحدودة وسلوكياته الجامحة وتعطشه لاراقة الدماء ، أمرا مستهجنا ، وتحول مفسدو الأمس ومشاغبوه الى حراس للمجتمع · وبينما كان النظام الكنسى يضمن الرعاية الربانية ويبشر بالأخلاقيات الأساسية فى مجتمع نصف بربرى ، باتت الطبقة المحاربة نظاما فى المجتمع وظيفته حماية غير القادرين والضعفاء · ولم يعد استخدام السلاح غاية فى حد ذاته ولم يعد مدعاة للفخر ، بل صار وسيله لغاية ، وأصبح الحق فيه مرتبطا باستخدامه فى قضية عادلة ·

ويبدو أن طبقة المحاربين كانت على استعداد لمواجهة التحدى حالما ترفعه الكنيسة · وتمثلت النتيجة فى التحول الجوهرى الذى طرأ على الرجل المقاتل · فالجندى الرومانى كان قد أصبح اسما مميزا خاصا بصفوة المقاتلين من الفرسان (لأن ذلك اللقب كان لا يشمل المشاة أى الجنود الذين يحاربون على أقدامهم) · ومن ثم فانه فى العصور الوسطى البباكرة كانت كلمة جندى تعنى الفارس Chevalier أو Kitter كما أسماه الانجلوساكسون والفرنسيون أو الألمان · وخلال القرن الحادى عشر صيغ تعبير جديد هو Miles Christians ومعناه الفارس المسيحى ، الذى كان يجمع ما بين اخلاقيات المسيحية والتقاليد الحربية الجرمانية · وسرعان ما شقت ايديولوجية الفروسية المسيحية الجديدة طريقها بسهولة من خلال تراث شعراء العصور الوسطى · فادانة الأفعال الشريرة ، وحماية الضعيف والدفاع عن شرف

السيدات وعفتهن ، أصبحت هـــذه هي الموضوعات التي تدور حولهـا اشعار القرن الثاني عشر · ووجدت أروع تعبيرتها الأدبية في الروايات التي نسجت حول الفروسية · وأياما كانت أصول هذه الروايات ، فانها جميعا كانت تحتفي بالمثل نفسها لأن الفروسية الأوربية لم تكن مرتبطة بوطن واحد ، اذ كانت نوعا من الأخوة العالمية ، وسـمحت للفارس أن يشعر بأنه في وطنه في أي بلاط في العالم المسيحي · ولم تكن الحروب ممنوعة ، الا ان القتال كان يسير وفق قواعد متفق عليهـا · وفضلا عن ذلك كله ، فان الفروسية كانت تعني ضـمنا مجتمعا من الرجـال الذين يربطهم شعور بالانتماء الى طبقة مشتركة ، ويعيشون وفقا لأنماط سلوكية معينة ، ويشتركون في العمل من أجل أهداف ومثل مشتركة ·

وسرعان ما يجد بطل الروايات الخيالية التي تدور حول الفروسية نفســـه مضطرا الى ترك وطنه للوفاء بالالتزامات الملقـــاة على أفراد طبقته · ولابـد له من محاربة عمالقـة متعطشين للدماء أو ليقاتل تنينا شريرا ، منقذا بذلك عفة السيدات وشرفهن ، وأرواح الضعفاء من كارثة أوشـــكت أن تحل بهم · ولكنه يجب ان يجوب طول البلاد وعرضها ، ويقوم بأعمال الشجاعة والجسارة بحثا عن الكأس المقدسة الأسـطورية (الخرافية) ، التي استقبلت دم المخلص المقدس وهو على الصليب · كمـا أن أسـماء بلانشـــفلير Blanchefleur ، وايزولدا Isolda ، وبرسـفال Perceval ، وتريســـتان Tristan ، والملك آرثر King Arthur ، وجـــاوين Gamain ، ولانســـلوت Lancelot (*) وكثيرين غيرهم سـوف تشـغل عالم التجربة المكتشف حديث والذي يشمـل المغامرة والحب والأراضي المجهولة والسعي وراء

(*) أسـماء ابطال الروايات الخيالية التي نسجت في العصـور الوسطى حول مواضيع المغامرة والحب والترحال في بلاد غريبة لتحقيق طموحات وأهداف مستحيلة · (الترجمة)

أهداف لا يمكن تحقيقها · وحلت محل أروقة القلاع المظلمة حقول الربيع والزهور والجداول المائية والمقابلات المرحة السارة ·

لقد كانت للحروب الصليبية بصمات واضحة فى تطور الفروسية · ذلك أن هذه الحروب قدمت الفرصة الأولى للفرسان فى جميع انحاء العالم المسيحى لكى يجتمعوا سويا من أجل هدف مشترك · فالحروب الصليبية غذت الاحساس بوجود أخوة مسيحية عالمية فى السلاح ، وغيرت مفهوم أوربا من منطقة جغرافية الى تراث ثقافى مشترك · وسرعان ما وجدت الأعمال البطولية طريقها الى المدونات التاريخية ، ثم تسربت الى المغنين المتجولين الذين أخذوا فى تمجيد نمط جديد من الأبطال ، هو الفارس المسيحى ، مبعوث الكنيسة فى الحرب الظافرة ضد الكفار من أجل الكنيسة وتحت رايتها · ومالبث الذهاب فى حملة صليبية أن صار جزءا من قانون الفروسية · وجعلت الضغوط الاجتماعية ، والانماط التربوية ، ومتطلبات الرأى العام من المشاركة فى الحرب الصليبية التزاما واجبا على كل نبيل يعتد بنفسه ·

وكل مجتمع يهتم باستمرار مثله وأسلوب حياته ، وهو كلام يصدق ايضا على مجتمع النبلاء فى العصور الوسطى · فمثال الحياة من ناحية ، والتعليم الرسمى من ناحية أخرى كانا يؤكدان على نقل المثل من جيل الى جيل وعلى استمرار أسلوب حياة النبلاء · فالمدارس بالمعنى الحديث للكلمة لم تكن معروفة تقريبا فى المجتمع العلمانى · وكان التعليم متأثرا بالبيئة لدرجة أكبر كثيرا مما هو الحال الآن · ولكن البيئة كانت بيئة مختارة لأداء مهمتها · ففى سن مبكرة للغاية ، حين يكون الطفل قادرا على البقاء بعيدا عن رعاية الأم يجب أرساله الى منزل آخر من منازل السادة الاقطاعيين · وهناك يتعلم أصول العقيدة على يد قسيس ، ويتعرف على حياة الأسياد التى سيحياها مستقبلا · وعلى الرغم من ان أى بيت من بيوت السادة الاقطاعيين كان يضم عددا كبيرا من الخدم ،

فان أولئك الأطفال الصغار كانوا يعينون لخدمة أحد الفرسان ، وغالبا ما يكون من عائلة السيد أو أحد أفراد حاشيته · وهكذا يعتاد على أشغال النبيل اليومية ، ابتداء بالعناية بالخيل وتلجيم الفرس حتى العناية بالسلاح والدروع · كما كان يركب للصيد ـ لقضـــاء وقت الفراغ وتدريب شبه عسكرى فى نفس الوقت ـ مع معلمه وأهل المنزل · وفى سن مبكرة يبدأ التدريب على ركوب الخيل والقتال بالسيف والرمح والدرع · وفى الوقت نفسه يقدم التابع الصغير الى مجتمع النساء ، كما يتعود على جوانب أكثر رقة من الحياة الاجتماعية ·

وعلى الرغم من أن التعليم الدينى لم يكن شـــاملا ، فانه كان بكل تأكيد التجربة الروحية الكبرى التى يمر بهـا الشـــاب الصغير · فان تعاليم العقيـــدة وقصص الكتاب المقـدس ، وترتيل المزامير ، وطقوس الأعياد الكبرى فىالتقويم المسيحى ، وتراث القديسين المحليين ، والأديرة والكنائس كانت هى أكثر المؤثرات قوة على مستقبل حياته من عدة وجوه· ولم تكن القراءة والكتابة شائعة حتى فى أوساط النبلاء ، وان كان بعض النبلاء قد أعدوا للحياة الكنسية مما يسر لهم فرصة التعليم منذ الصغر · وعلى أية حال ، فان عددا قليلا للغاية من النبلاء هم الذين كتبوا خطابات شخصية أو رسمية ، فغالبا ما كان يقوم بهذا العمل كاتب أجير · وقد كانت القراءة أكثر شيوعا ، وكانت القراءة تعنى معرفة اللغة اللاتينية ، التى حفظت لنا معظم تراث أوربا · فضلا عن أنه لما كانت اللاتينية هى لغة الكنيسة ، فان معرفة اللغـة ولو بشكل سطحى على الأقـل ، كانت ضرورة لابد منها ، على الرغم من أنه ليس من المشـــكوك فيه ان يكون النبيل عارفا حافظا لأكثر الصلوات والابتهالات شيوعا ·

وفى زمن الحملة الصليبية الأولى ، وربما قبل ذلك بجيل أو جيلين ، بدأ تدوين الأدب باللغات الوطنية ـ بالألمانية أولا ثم بالفرنسية فالأسبانية ثم الايطالية ـ التى لقيت منافسة قوية من اللغة اللاتينية · ولأن اللغات

الوطنية قد وجدت استجابة لنمط جديد من المجتمع ، فان الأدب الشعبى قد عكس ازدياد اعداد من يستمعون اليه · كمـــا عكس عادات جديدة واشكالا جديدة للحياة الاجتماعية · وهذا ، بدوره ، أوجد مطالب جديدة بتعليم أبنـــاء البيوتات النبيلة · ولأن التجمعـــات التى كانت تحضرها السيدات كانت كثيرة ، فقد تعين على التابع الاقطاعى الشاب أن يكون ملما بعادات واخلاقيات البلاط · ولم يكن هذا يتضمن السلوك الخاص فحسب ، ولكنه كان يتضمن المهارات والمعرفة المطلوبة بالانماط الجديدة للسلوك الاجتماعى أيضا ·وكان يتوقع من التابع الاقطاعى انينظم الاشعار، أو على الأقل ان ينظم قصائد المناسبات ، وأن يغنى لصحبته · وهـــذه المهارات الثقافية ، مع ضروريات اللطف المجاملات ، كانت القاسم المشترك لتعليمه المادى والذى كان اهم شىء على الاطلاق بالنسبة لمستقبله ·

ووفقا لمقولة شـــائعة ، فان ركوب الخيل كان يبدأ حالما يستطيع الطفل المشى · اذ كان الركوب ضرورة باعتباره رمزا للمكانة الاجتماعية· كما أن أداء الرجل فى القتال ومهارته كانا يعتمدان على مدى قدرته فى السيطرة على فرسه · وكان الركوب من أجل المتعة والصيد بمثابة تدريب للشبان الصغار على استخدام السلاح · فالسيطرة على القوس والسهم ، وهو اقل اهمية فى التدريبات العسكرية ، كانت هامة أثناء الصيد بالكلاب أو الصقور · ثم يتبع ذلك امساك الحربة أو الرمح وقذفهما مستخدما درعا وممسكا بقضيب أو سيف أو خنجر · وكانت عناصر الاستراتيجية والتكتيك يتم تحصيلها عن طريق المثل الحى حين يرافق التابع الاقطاعى الصغير أحد الفرسان فى واحدة من الغارات الاقطاعية التى لا تحصى والتى يتم فيها تدمير المحاصيل فى حقول أحـــد الســـادة الاقطاعيين المجاورين · ويراقب معارك الحصون وفن الحصار ، على الرغم من انه

نادراً ما كان يشـــهد فن نصب آلات الحصـــار ، مما كان ينمى معارفة العسكرية ٠

وهكذا كان الرجل الشاب يترعرع فى اطار مزدوج للحياة ، القتال وحياة البلاط ٠ وتقدم الروايات الخيالية التى تدور حول الفروسية واغانى العصور الوسطى ، واشـــعار البلاط هذين الجانبين للتعليم ، والهدف المزدوج للحياة ، كما تقدم مستويين مختلفين للوجود ، وتوقفنا على قيم البطولة ومثل مجتمع البلاط المترف ٠ فالجانب الأول يعلن عن فضـــائل الاســـلاف من أنصـــاف البرابرة على حين يكشف الجانب الثانى عن فضـــائل مجتمع يعاصر الصـــحوة الأدبية وسرعان ما سيخلق اعاجيب الرومانسية والقوطية فى العمارة والنحت والرسم ٠

ونادرا ما كان الســـلوك فى البلاط يتأثر بالدين ٠ وقد اتخـــذت أكثر من رؤية شاكة لبعض مثل البلاط كتلك المثل التى تفصل الحب عن الزواج ٠ فالحب الذى يدفع بالرجال الى الاتيان بالمعجزات ، كان من المفروض ان يوجد بين زوجة السيد الاقطاعى التى يصعب الوصول اليها وبين التابع الشـــاب ٠ وســـواء أكان هـــذا الموقف ، الذى غالبا ما يرد وضعه فى اشعار ذلك العصر ، ابداعا أدبيا قصد به ان يضيف عنصر الدراما أو المأساة ، أو أنه كان يعكس ممارسة عامة للبلوغ والمراهقة ، فان حقيقـــة الأمـــر لا تزال مجـــالا للتخمين ٠ ومن المحتمـــل ان الحنين والشوق بين السيدات النبيلات والشباب لم يكن يصل الى حد التنهيد والغراميات ، ولكنه كان يخلق اطارا مزدوجا من التناســـق الوثيق : الزواج العرفى وانشـــاء عائلة من أجـــل استمرار السلالة الحقيقية ذات الدم الأزرق ، والحب (الحب الرومانسى) الذى يترعرع خارج اطـــار الزواج ٠ ومن المؤكد ان الكنيسة لم تكن تتعاطف مع هذا الأسلوب فى الحياة ، بيد أنهـــا لم تكن تستطيع التدخل بأكثر من الدعـــوة الى العفة

والتهديد بالحرمان • ومع ذلك ، فعلى المـرء ان يضع دائما فى أعتباره حقيقة ان مثل هـذا النمط من العقلية والسلوك كان محصورا فى دائرة محدوده جدا فى المجتمع •

ومن ناحية أخرى ، كما ذكرنا من قبل ، كانت الكنيسة تتولى زمام تحويل الرجل المحارب الى فارس مسيحى وعندما أصبحت مهنة العمل فى السلاح مهنة معترفا بها ، أخذت الكنيسة تتدخل فى أعظم حدث فى حياة النبيل ، وهو تتويجه فارسا • فلم يكن هناك ما هو أقرب الى قلب الناس فى العصور الوسطى من المراسم والطقوس والرموز • فقد كانت هذه العقلية جزءا من تراث الاعتقاد السابق فى سحر الطقوس والكلمة المنطوقة ، كمـا كانت حصيلة الحياة فى عالم توجهه العناية الالهية ، ومع ذلك فما يزال الشيطان واتباعه يسكنونه ويؤثرون فيـه ، وهو عالم لا يمكن للغة أن تصفه الا بصعوبة ، على حين يمكن للرموز ان تعبر عنه فى سهولة ، وغالبا ما كانت هذه الرموز تؤخذ من الحقيقة ذاتها • وفى هذا الخصوص ، صار تنصيب الفارس اعلانا عن أن الشاب قد أصبح رجلا ، كما صار هذا التنصيب أيضا طقسا يؤدى بالرموز والاشارات الرمزية ، وهو نوع من التعليم الدينى المكثف وتلقين للفضائل التى ينبغى ان يتمسك بها الشاب الذى أصبح فارسا •

وعلى الرغـم من ان تنصيب الفارس كان يرتكز فى أساسه على العادات القبلية الخاصة بطقوس البلوغ ، فان عناصر الاحتفال الأصلية اختلطت آنذاك بالاضافات التى حولت الفعل الاجتماعى والعسكرى الى طقس تعميد مسيحى ـ تعميد ثان ، يتم من خلاله اقرار البالغ بالالتزامات التى يفرضها عليـه تلقيه للسر المقـدس • ومثل أى طقس دينى كان لتنصيب الفارس جوانبه التأملية والطقسية • ففى أكثر أشكاله تفصيلا كان التنصيب يبدأ بقضاء التابع ليلة فى الكنيسة وفى أثناء هـذا كان

المفروض عليه ان يتأمل حياته المستقبلة ويفكر فى الفضائل التى ينبغى عليه ان يتمسك بها والرذائل التى يجب ان يتحاشاها · وكان هذا العزل الليلى فى رحاب معبد الرب هو المقابل للندم فى طقس التوبة ، كما كان فى الوقت نفسه علامة تحول فى حياته · والحمام الذى يأخذه صباح يوم التنصيب يقابل طقس التعميد فى أنه طقس طهارة من الناحية الرمزية والطقسية ، وهو يعتبر مدخلا للتابع الاقطاعى الى المجتمع الجديد ـ ليس جماعة المؤمنين فى هذه المرة ، وانما هو مجتمع الأخوة المسيحية للمحاربين الأرستقراطيين · وكان الاعتراف وصلاة القداس فاتحة الحدث الكبير · وتعلن الملابس الجديدة المتألقة فى بياضها ، والتى كانت تلبس فى هذه المناسبة ، عن طهارة القلب والقصد · وكانت جميع هذه الاستعدادات مأخوذة من الكنيسة · وعلاوة على ذلك ، كانت الكنيسة تتدخل فى جوهر الطقس ، فمنذ نهاية القرن الحادى عشر فصاعدا كان القسيس (ويمكن القول القسيس الذى يشرف على حفل التنصيب) يبارك الرومز المادية للفروسية كالسيف والحربة أو الرمح الطويل التى كانت تشمل تقريبا جميع حاجيات المحارب ، فيما عدا المهماز ، وكانت كلها تسلم أثناء حفل التنصيب ·

وكان الجزء الفعلى من الانعام الفروسية يتم على يد رجل مسن من الفرسان · وقد يكون والد الشاب أو أحد أقاربه · ولكن غالبا ما يكون أحد من اشتهروا بمسلك الفرسان ، وفى بعض الحالات كان تنصيب الفارس يتم على يد أحد رجال الكنيسة · وكان الرجل الذى يقوم بالاحتفال يساعد التابع الاقطاعى الشاب فى تقلد السيف ، ثم يعطيه حربته وخوذته ومهمازيه ، ويركع الشاب على ركبتيه ويتقبل منح درجة الفروسية أو ضربة على كتفيه ، وهو عمل رمزى معناه ليس معروفا بشكل واضح · ووفقا لاحدى النظريات ، كان المقصود به تذكرة الشاب بالحادث الجليل فى حياته ، وحسب نظرية أخرى ، كان ذلك برهانا على

أن الرجل يستطيع ان يتحمـــل الضربة · وايا كان الأمر ، فقد كان من المفروض ان هذه هى المرة الوحيدة فى حياة الفارس التى يتحمل فيهـــا الضربة دون هجوم ودون أن يردها ·

ومن الطبيعى ان روعة احتفال تنصيب الفارس كانت تعتمد على مكانة العائلة · ففى بيوت الأمراء يصير احتفالا رئيسيا ، على حين انه كان احتفالا متواضعا فى المستويات الأدنى ، وعلى الرغم من الميل الى تقنين شكل الاحتفال ، فان ثمة تقليد آخر أقـدم ، وربما أكثر أصـالة ، لتنصيب الفارس وتدشينه فى ساحة القتال حين يثبت شـــجاعته ، كان لايزال موجودا · وظل هذا طريقا ، وان كان ضيقا ، للانتقال وقد سمح حتى لأبناء العامة بالدخول فى زمرة النبلاء ·

ومع طلوع فجـر القـرن الثانى عشر ، صـــار الدفاع عن الدين وحمـــايته من بين الواجبات الجديدة المنوطة بالفارس · اذ كان رجـل العصور الوسطى يتطلع الى الامبراطور هرقل والى شارلمان باعتبارهما مثالين لامعين للمدافعين عن الدين · وسرعان ما ظهر مثـــال جديد فى الخيال الشعبى ، ذلك هو مثال المكابيين ، الأبطـال العظام فى التاريخ المقدس الذين دافعوا بأجسادهم عن العقيدة ضـــد الوثنيين الدنسين · وكان فى مقدور المرء ان يقاتل البروسيين الوثنيين على حدود ألمانيا أو بولندا أو يحارب المســـلمين فى أسبانيا ولكن لم يكن هناك شىء أكثر تمجيدا للمرء من الخروج الى الحرب فى الأرض المقدسة · فالحرب من أجل الدين ، ومن أجل تحرير قبر المسيح المقدس أو الدفاع عنه قد صـار جزءا لا يتجزأ من قانون الفروسية · وقد كان ذلك التزاما دينيا بقـــدر ما كان التزاما على الفـارس · فالرحيـل عن الحبيب فى زمن الحملـة الصليبيـة الثالثـــة ، جعـــل كانون دى بيتـون Canon de Béthune يعلن : « ··· وا أسفاه أيتهـــا الحبيبة الجميلة ، يا له من فراق يمزق

القلب ٠٠ فراق بعيد عن أجمـــل وأروع من حظى بالحب والخدمة منذ الأزل ٠٠ يجب على أن اذهب الى ســوريا متنهـدا وعاشقا لأنه لا ينبغى لأحد أن يخذل خالقه ٠٠٠ وليكن معلوما للعظيم والحقير على السواء أنه هناك يقوم المرء بأعمال الفروسية ٠ فهناك يربح المرء الفردوس والشرف ، والمكافأة والثواب كما ينعم بحب الحبيب » ٠

الفردوس والشرف ، الثواب والحب ــ هى مكافآت الحياة الدنيا والبركة الأبدية ٠ فقد تداخلت التعاليم الدينية مع مبادىء الفروســـية وارتبط السماوى بالأرضى فى قانون منسجم متسق للحيـاة ٠ ومرة بعد الأخرى تظهر المثل المتداخلة فى الشعر المعاصر ، مؤكدة على أن شرف العالم المسيحى فى خطر ٠ فإن سيطرة أعداء بيت المقدس الأبديين عليها يجعل من الحياة المسيحية حياة كلها الخزى والعار ٠ والفرسان الذين ينضمون الى الحمـلات الصليبية يفون بواجباتهم ليس تجـاه انفسهم فحسب ، وانما تجاه العالم المسيحى بأسره ٠ ولنقتبس من كانون دى بيتون مرة أخرى حيث يقول : « ان القساوسة والشيوخ الذين سيقومون بأداء الأعمال الطيبة وفعل الخيرات سيكون لهم جميعا نصيب فى الحج ، وكذلك السيدات ، اذا ما عشن حياة العفة واحتفظن بالولاء لأولئك الذين فارقوهن هناك » ٠ ويضيف مستدركا وكأنه يضيف عـدة سطـور لا شك أنهـــا كانت ماثلة فى عقـــول كثير من الصليبيين ، اذ يقول : « ولكن اذا ما ارتكبت السيدات الخطيئة ــ فيا للأسف ــ لأنهن سوف يخطئن مع الجبنـــاء والاشرار ، لأن كل الطيبين من الرجـــال سيكونون فى رحلة الحج » ٠ وسيتردد هذا التفكير الانسانى مرة أخرى بعد ذلك على لسان شـــاعر التروبادور الفـــرنسى رتيبيف Rutebeuf ، الذى تعرض بالاهانة لكل من عارض الحروب الصليبية ، بما فى ذلك أولئك الذين كان الرحيل عن شخص يحبونه يمثل عقبة كبرى فى سبيل مشاركتهم ٠

ومنذ لحظة حمل الصليب والقسم بالمشاركة فى الحرب الصليبية

حتى لحظة الرحيل كان الوقت يستغرق فى تمويل البعثة ، والعثور على الرفاق ، ربما أيضا فى اختيار قائد للرحلة · وقد كانت هـــذه المهـــام سهلة عندما كانت الحملات الصليبية الكبرى تعلن من قبل البابا ، ويقوم على رأسها الملوك أو الأمراء · ولكن فيما بين هذه الحملات الكبرى ، شقت اعداد لا تحصى من الفرســـان وعامة الناس طريقهم الى الأرض المقدســـة ، مستمتعين بمكانتهم الخاصـــة كصليبيين وهى المكانة التى انعمت بها الكنيسة عليهم · وكانت هـــذه الامتيازات تتضمن ليس فقط غفران الخطايا والذنوب وحماية أرواح المشاركين واملاكهم ، بل وتجميد الديون والمصـــالح حتى عودتهم ، والذهاب فى حملة صليبيـــة مثـــل كل شىء آخر فى قانون الفروسية تحول الى طقس يتم فى احتفال خاص · وكان هذا الاحتفال يبـــدأ بأن يقطع الفارس على نفســـه قسما بالالتزام بالرحيل الى الأرض المقدسة ، ويدير الاحتفال قسيس أمام جمع من الناس فى القلعة أو الضيعة · وكان على الصليبى أن يخيط صلبانا حمراء فى معطفه أو سترته ، غالبا ما تكون على كتفيه وظهره وصـــدره · وكانت هذه علامة على ان الصليبى عازم على الحرب لا لسبب سوى مجد الدين والصليب · ولكن غالبا ما كانت تمضى سنة أو أكثر قبل ان يتمكن الفارس من الاستعداد الحقيقى للسفر ·

وكان الاحتفال بالرحيل يتم فى كنيسة القلعة أو فى كنيسة أو دير قريب وبعد الاعتراف والتنـــاول يأخذ الصليبى أســـلحته ، والسيف والحربة ، والدرع والعلم التى باركها القس فى المذبح · ومن هنا يتوجه فى صحبة العائلة والجيران والفلاحين الى بوابة القلعة أو حدود ضيعته ، وكان الفراق صعبـــا فالناس فى العصور الوسطى ، على الرغم من انهم كانوا دائمـــا على سفر ، نادرا ما كانوا يتغيبون عن بيوتهم مدة طويلة ، ما لم يكونوا تجارا محترفين (وحتى فى مثل هذه الحال كانت عدة شهور بعيـــدا عن المنزل تعتبر مخاطرة خارقة للعـــادة) · فالذهاب الى الأرض

المقدسة عادة ما كان يعنى غياب سنتين ، وغالبا ما كانت السنتان تمتدان لفترة أطول · وبطبيعة الحال ، كان هذا يحدث اذا كان الرجل محظوظا بحيث يقدر له أن يعود ؛ لأن الافا وعشرات الآلاف لم يعودوا ابدا · اذ مات البعض على الطريق من المرض أو الأرهاق ، على حين وقع البعض الآخر فى عرض البحر اسير القراصنة المسلمين (والمسيحيين أحيانا) ، ناهيك عن أولئك الذين قتلوا فى ساحات المعارك فى ارمينيا وسوريا ومصر والأرض المقدسة أو وقعوا فى يد المسلمين ينتظرون سنوات طويلة حتى تحين الفرصة لكى يعلم اقرب ملوكهم بأمرهم ويطلب افتداءهم بالمال · ويصف جوانفيل Joinville ، كاتب قصة حياة القديس لويس الشهير ، رحيله للمشاركة فى الحملة الصليبية بقوله :

« فى يوم جمعه قلت لهم : أصدقائى ، اننى سارحل قريبا عبر البحار ، ولا أعلم ان كنت سارجع على الاطلاق · ولهذا فهل لى ان أسأل اذا كان أى منكم له دعوى ضدى فليتقدم · واذا كنت قد أخطأت فى حقكم فسأحول خطاى الى حسنة ، ولكى لا أؤثر على قرارهم انسحبت من المناقشة ، ثم وافقت بعد ذلك بدون تردد على ما أوصوا به · ولأننى لم اكن ارغب فى أن أحمل معى نقودا لا أستحقها ، فاننى رهنت الشطر الأكبر من ارضى · واستطيع ان أؤكد لكم انه فى يوم رحيلى عن بلدى للذهاب الى الأرض المقدسة لم يكن معى دخل يزيد عن ألف ليفر من ضياعى · وفى اليوم الذى تركت فيه جوانفيل أرسلت الى رئيس دير كيمينون ، الذى قبل عنه أنه احكم رهبان النظام السسترشيانى واكثرهم أمانة · وهذا الراهب نفسه هو الذى ناولنى عصا الحج ورقعة الشهادة · وتركت جوانفيل بعد ذلك مباشرة ــ فليس لى ان ادخل قلعتى ثانية حتى عودتى من الرحلة عبر البحار ــ على الاقدام وساقاى عاريتان وانا ارتدى قميصى ، وقد ذهبت وانا فى هذا الزى الى بليكورت Blécourt والى أماكن أخرى وسان اربان Saint Urbain

حيث توجد بعض الذخائر المقدسة · وعلى طـــول الطريق الى بليكورت وسان أربان لم أدع عينى تلتفتان الى جوانفيل مرة أخرى على الاطلاق ، خوفا من أن يمتلىء قلبى بالشوق لقلعتى الحبيبة وطفلى اللذين تركتهما خلـفى » ·

هكذا كان الواحد منهم يترك وطنه بقلب مثقل بالهموم وهو يرحل عن أهل وبيته · وثمة قصيدة ســـاحرة مؤثرة صاغتها سيدة شـــاعرة مجهولة ربمـــا كان اسمها جان دى نيفيل Jehan (Jeanne) de Neuville وتتكون القصيدة من السطور التالية :

أورشليم ، لقد سببت لى الكثير من المعاناة

لقد أخذت من تملكنى حبه

لذا اعلمى أننى لن أحبك أبدا

لأنه ما من شىء مثله ادخل على البهجة

وغالبا ما أشعر بمدى كآبتى وغضبى

لأننى أقف فى وجه الرب

الذى انتزع منى أعظم أفراحى

أيها الحبيب الحلو كيف تسمح

بعذابى وأنت هناك عبر البحر الملح ؟

لا شىء يستطيع وصف الألم الذى يعصف بقلبى

حين اتذكر وجهك الحلو الصافى

الذى اعتدت تقبيله ومعانقته

انها لمعجزة أننى لم أفقد صوابى

مثل هذه المشاعر فى سياق الحملات الصليبية تشرح لنا قطعة فنية فريدة من النحت ترجـــع الى القرن الثانى عشر محفـــوظة فى متحف الكوردلييه فى نانسى ، ومن المحتمل انها تمثل شـــخصية تاريخية هو الـكونت فنـــدوم Vendôme الذى التحق بجيش مليكه لويس الســابع فى الحملة الصليبية الثانية ، ولكنه لم يعد مع العائدين بعد ذلك بسنة (١١٤٨) وبعد أن اقيم الحداد عليه ، وأعلن انه مفقود ، ونسى الناس ذكره عاد الى موطنه بعد خمسة عشر عاما · والنحت يصور اعادة جمع شمل الكونت العائد ·· وهو ما يزال فى ثيابه المهلهلة ، مرتديا الصليب ومعه عصـــا الحج ـ وزوجته · وتبدو الأجســـاد المتعانقه فى اللوحة المنحوتة كما لو كانت اندمجت فى كتلة صخرية واحدة ـ صخر صامت ولكنه اكثر تعبيرا من اى فصل فى رواية من روايات الفروسية ·

ويمكن قياس مدى قوة الرابطة بين الفروسية والحروب الصـليبية من خلال الحقيقة القائلة بأن هذه الرابطة ظلت على قوتها لمـدة قرنين من الزمان · هذه الرابطة ظلت ـ بحساب العصور الوسطى ومصطلحها ـ هى القوة الدافعة لحركة مستمرة تجاه الشرق على مدى ما يقـرب من عشرة أجيال متتابعه · بل انها ستبقى حيه على مدى قرنين آخرين حين أخذت شكل حملات صليبية عسكرية ضد المماليك ، والمغول والأتراك ، على الرغم من ان نهايتها كانت تلوح فى الأفق ·

وهناك شىء يأخذ بالألباب حول أولئك النبلاء الذين جذبتهم مغامرة الفروسية فى العصور الوسطى · فلا شك انهم كانوا يتحركون بدافع من عقيدة مسيطرة على الرغم من أن المرء قد يشك فى مدى عمق تدينهم · اذ كانت العقيدة جزءا من نظـام تربيتهم وحياتهم اليومية ، وهى حقيقة لا يرقى اليها الشك كانت تفرض نفسها على الأعياد والمواسم وعلى كل الأحداث الجسام فى حياة الناس من المهد الى اللحد · لقد ولدت الحركة الصليبية من رحم الدين كما أن الدين استعاده توقده بفضـــل الحروب

الصليبية ، ذلك ان محاربة الكفار وتحرير الضريح المقدس أو الدفاع عنه لم يكن مجرد شعار ، أو مجرد تبرير للحرب والقتال ، وانما كان جانبا من جوانب الحياة الداخلية وشعورا بالالتزام داخل كل انسان ٠

وأيا ما كان الأمر ، فان أولئك المحاربين العظماء الذين تربوا على الكتاب المقدس وقصص الفروسية الخيالية ، كانوا هم أيضا جمهور رؤية التروبادور الطائشة للحياة ، وهى نظرة كانت تبشر صراحة بالأباحية والزنا ٠ ولم تكن ثمة علاقة موضوعية رابطة بين الاثنين سوى واقع الحياة التى يمكن للمرء ان يمارس فيها الاثنين دون أن يضطر الى المواثمة بينهما ٠ ومهما كانت الاحتمالات ، فان كثيرين كانوا ينتهجون السبيل الذى أوضحته بعض الكتابات ذات الصبغة الأخلاقية فى ذلك العصر ـ وهو سبيل الندم عما حدث فى سن الطيش وتجاوزات الشباب ومع ذلك فالممارسة المزدوجة للفروسية ومطارحة الغرام لم تكن هى الشكل الوحيد للسلوك ٠ واذا كانت مطارحة الغرام أضافت سحر الحب ومتعة الجنس الى الواجبات القاسية للمحارب المسيحى عند الغالبية العظمى ، فان البعض كانوا يرون ذلك أمرا دنيئا ٠ وكان رجال الكنيسة والعلمانيون المتزمتون يرون فى هذا المستوى المزدوج للأخلاق أمرا ممقوتا ٠

واذا كانت بروفانس ، بما اشتهرت به من اعلاء لشأن الحب ، قد أسرت الشمال ، فالأرض المقدسة تفاعلت مع الغرب بأسره ووضعته رهن محبسها حين خلقت أيديولوجية جديدة من الفارس المسيحى الكامل ٠ فان أحلام هذا الفارس لم تكن حافلة بصورة الحب الفانى ، وانما برؤى الحب المقدس ، حب الله الخالد الذى لا يفنى ٠ وكانت التعاليم الأخلاقية والفضائل المسيحية التى يلقنها المرء فى طفولته تقوى ويشتد ازرها من خلال الارتباط بالأرض المقدسة ، التى صارت مهد النظم العسكرية ٠

وأكثر ابتكارات الصليبيين والحملات الصليبية أصالة هى النظم العسكرية التى كانت مجالا لتحقيق الايديولوجيتين الكبيرتين فى أوربا العصور الوسطى فى أدق صورة ـ وهما حياة الرهبنة الديرية وحياة الفروسية ـ وأصبحت نظم الرهبنة العسكرية واحدة من أكثر التعبيرات شمولا عن طباع العصور الوسطى ٠

والفكرة الكامنة وراء نظم الرهبنة العسكرية لم تنشأ بين القساوسة أو الرهبان ٠ فقد كان المبادرون بانشائها من العلمانيين ٠ وكانت هذه النظم أحد المجهودات الباكرة الخلاقة لطبقة النبلاء فى مجال الاخلاقيات والايديولوجيا ٠ فبعد ان استولى الصليبيون على بيت المقدس مباشرة ، جمع فارس بروفنسالى يدعى جيرالد Gerald مجموعة من الفرسان لرعاية المرضى والجرحى ٠ فقد كانت الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى الملقاة فى الشوارع ماتزال تملأ المدينة حين بدأت مجموعة من الفرسان الصغيرة عملها الخيرى فى مستشفى فوقت ٠ ولم يكن مفهوم العلاج والمستشفى مفهوما جديدا ٠ ففى سنة ١٠٧٠ م تقريبا قامت مجموعة من تجار أمالفى Amalfi الذين كانوا يترددون على شرق البحر المتوسط باستمرار ، بتأسيس مستشفى للحجاج الغربيين فى بيت المقدس ٠ وتوقفت أعمال العلاج والمستشفى أثناء فترة الحصار ، وتم اجلاء الرهبان والراهبات الذين كانوا يعنون بالمرضى الى خارج المدينة ٠ والحقيقة ان اعادة احياء هذه المؤسسة الجديدة انما تم على يد العلمانيين ـ وليس الرهبان والراهبات ـ الذين أخذوا على عاتقهم مهمة رعاية المرضى والفقراء والمعوزين ٠ فالاحسان ، كما كانت نظرة النبلاء اليه ، كان يعنى اعطاء الصدقات للمحتاج ، وعادة ما كان هذا مرتبطا بالعطف والاكرام ٠ وقد تلى التصوير الكلاسيكى المتأخر للصراع بين الفضائل والرذائل مناظر تصور الملك والنبيل فى زيارة مريض ٠ ومن المؤكد أن الرعاية لم تكن تنصب على المرضى شخصيا ٠ وهكذا

حققت المجموعة الصغيرة التى التفت حول جيرالد فى بيت المقدس مساهمة فريدة من نوعها فى مجال الوعى الاجتماعى ٠

وتمركز الفرسان من المدخل الجنوبى حتى منطقة الضريح المقدس ٠ واستولوا على كنيسة بيزنطية عجيبة من دورين تميزها كنيسة صغيرة ثلاثية الاضلاع ٠ وكان القديس الحامى للكنيسة هو القديس حنا مانح الصدقات John Almsgiver السكندرى ٠ ولكن الصليبيين استبدلوه بيوحنا المعمدان الذى كان أكثر شعبية ـ بطبيعة الحال ـ من سلفه ٠ ثم ادمج مبنى الاستشفاء الذى كان يتبع تجار أمالفى من قبل باسم سانت مارى فى مجموعة من مبانى المستشفى سرعان ما امتدت لتشغل حيا كاملا من أحياء المدينة ٠ وفى دولة فى حالة حرب يزورها آلاف الناس كل عام ، كانت العناية بالمرضى والجرحى ضرورة ملحة ٠ وما لبثت ان وصلت الهبات والعطايا من الحجاج والبيوت الملكية والنبيلة فيما وراء البحار لتدعم المركز المالى للجماعة ٠

وهذا الرابطة المتطوعة من المثاليين اتخذت لنفسها القواعد التى تحكم أية رابطة ديرية ٠ وقطع أعضاؤها على أنفسهم قسما ثلاثيا بالفقر والعفة والطاعة ٠ وعلى مدى ما يقرب من جيل بدا وكأن مستقبل هذا التنظيم سيكون مؤسسة ديرية له أهداف علاجية ٠ وقبل ذلك ، وفى داخل أية مؤسسة ديرية لا يختلف النبيل ـ على الأقل من الناحية النظرية ـ عن أى راهب آخر ، على الرغم من أن مولده وتعليمه قد يكونا من عوامل ترقيه ووصوله الى مكان مرموق ، مثل رئيس الرهبان أو مقدم الدير ٠ ولكن فى بلد يتسم بهذا القدر الكبير من المهاجرين مثل المملكة اللاتينية فى فلسطين ، وكان من الصعب الحفاظ على القواعد التى تفرق بين النبلاء وغير النبلاء ٠ والخلاصة أنه اذا لم يكن تنظيم القديس يوحنا قد انتهج هذا المنهج فى التطور وظل يحافظ على التفرقة بين الاثنين ، فقد كان

ذلك لأن رابطة جديدة من النبلاء أخذت فى الظهور فى الوقت نفسه ، وهى جماعة الداوية ٠

وتنظيم الداوية (المعبديين Templars) ـ وقد سموا بهذا الاسم لأن مقرهم الأول كان فى هيكل سليمان فى القدس (فى المسجد الأقصى) قام على أسس مختلفة فى افتراضاتها ولكنها كانت أكثر ملائمة للطبقة الاجتماعية التى أنضم أبناؤها الى هذا التنظيم ٠ وقد أسسه هوف البساينزى Hugh de Payns ، الذى جمع مجموعة صغيرة من الفرسان فى رابطة متطوعة لتقدم خدماتها فى شكل قوافل مسلحة تخدم الحجاج فى طريقهم من القدس الى مدينة أريحا ومنها الى الأماكن التى شهدت تعميد المسيح فى الأردن ٠ ولم تكن حالة عدم الأمن العامة التى سادت خلال العقدين الأولين من عمر المملكة ترجع فقط الى الحدود التى تفتقر الى وسائل الدفاع والتحصينات ٠ فقد كان هذا الشعور بعدم الأمن مسيطرا تماما داخل حدود المملكة ، لأن جماهير سكان الريف ظلوا من المسلمين ، ولم تكن الدولة الصليبية قادرة على فرض سيادتها على السكان الا بقدر ما لديها من قوة ٠ وظل المسلمون على عدائهم للصليبيين ، بل ان بعضهم غادروا مواطنهم وهاجروا الى سوريا ومصر ، بينما البعض الآخر ، كما نعلم من احدى المدونات الصليبية ، تركوا فلاحة أراضيهم مفضلين العيش على حافة الموت جوعا ٠ وبذلك يحرمون الغزاة المكروهين من يصادر الدخل ٠ وكان السفر يمثل مخاطرة جسيمة فى الأراضى الجبلية والتلية فى منطقة الجليل ، وهو ما كان يحرمون الغزاة المكروهين من مصادر الدخل ٠ وكان السفر يمثل مخاطرة محفوفة بالأخطار ٠ ولم يكن الموقف أفضل على الطريق الرئيسى من ميناء يافا الى بيت المقدس عبر سهل الرملة ٠ ولحماية الحجاج ، نظم الداوية قوافل مسلحة أصبحت جزءا من الوجود الصليبى ٠

هذه الرابطة العسكرية الباكرة سرعان ما تطورت الى جماعة من المتطوعين ، وربما تكون بعض القواعد الأولية قد وضعت بالفعل على يد مؤسسها عام ١١١٨ م · وأدمجت رسميا فى قواعد التنظيم عند حصوله على موافقة الكنيسة · ولقيت الرابطة الجديدة مساندة معنوية من سان برنار الكليرفوى St. Bernard de Clairvaux الذى كان يمثل أعلى سلطة روحية فى ذلك العصر · وفى كتيب صغير يسمى « فى مديح الفروسية الجديدة » ، ترك لنا برنار وصفا للنمط النموذجى للفارس من نظام الداوية ، الذى يختلف عن الفارس العلمانى · فقد كتب يصف الفارس الدنيوى الذى ينكب على الحياة الناعمة ويبحث عن المجد الشخصى ، يقول :

« انكم تكسون خيولكم بالحرير ، وتغطون دروعكم بكسوة براقة · كما أن حرابكم ملونة ، وكذلك دروعكم وسروجكم · كما انكم تطعمون مهاميز خيولكم وألجمتها بالذهب والفضة والأحجار الكريمة · ومع كل هذه الفخامة تتحركون فى غضب مخز وغباء قح الى ميدان المعركة · هل هذه هى المظاهر التى تناسب الفارس ، أم هى زينة تناسب النساء أكثر ؟ هل تظنون حقا ان سيف العدو سوف يحترم الذهب ، ويبقى على الأحجار الكريمة ، ولا يخترق الثياب الحريرية ؟ لقد علمتنى التجربة ان المحارب يحتاج الى أشياء ثلاثة : يجب ان يكون فارسا شجاعا ، يقظا حريصا حتى يحمى نفسه ، كما يجب ان يكون سريعا خاطفا مستعدا على الدوام لتوجيه ضرباته الى الخصم · ولكنكم على النقيض تماما ، فقد ارسلتم شعوركم لتطول كشعور النساء لدرجة انها تحجب نظركم ، كما انكم تقيدون حركتكم بسبب السترات الطويلة الفضفاضة وتدفنون اياديكم الناعمة الرقيقة فى اكمام طويلة ترفرف حولكم » ·

أما « فارس الرب » من الداوية فيصفه ويزكيه زعيم أوربا الروحى بقوله : « أولا ، نظام وطاعة لا مثيل لهما ، فكل واحد منهم يغدو ويروح

وفقا لمشيئة قائده · وكل منهم يرتدى الملابس المعطاة له ، ولا يبحث أحد عن طعـام أو ملابس ارضـاء لنزواته · ففى مسائل الطعام والملابس يقنع الواحد منهم بما هو ضرورى متجنبا كل ما هو زيادة عن الضرورى · وهم يعيشون فى جماعة ، ينعمون بالسرور فى رزانة دون زوجة أو ولد · ولكى يصلوا الى الكمال الانجيلى ، فهم يعيشون فى البيت نفسه وبالطريقة نفسها دون أن يدعوا ملكية شىء ، حريصين على الحفاظ على وحـدة الروح فى ظل روابط السلام ·

أما الكلمات البذيئة ، والمشـاغل التى لا معنى لها ، والضـحك الخـارج ، والضحكات البلهاء الهامسـة أو حتى المكتومة ، فهى غير معروفة · ويكرهون الشطرنج والنرد ، ولا يحبون الصيد ولا يستمتعون بتطيير الصقور · وهـم يحتقرون الممثلين الصـامتين والحـواة ، والقصاصين ، والأغانى الماجنة والعاب المهرجين ـ فكل هـذه أمـور يعتبرونها عبث ولهو باطل ، وطيش سخيف · وهم يقصرون شـعورهم لانهم يعلمون أنه من المخزى للرجل أن يرسل شـعره · وهم لا يزيدون أبدا فى ملابسهم وهم نادرا ما يستحمون وهم لذلك قذرون مشعرون وقد لوحت جلودهم الشمس وطول السفر · »

وقد أحرز التنظيم الجديد نجاحا هائلا · فقد جنده الملك والنبلاء المحليون لأنه كان يسد احـدى حاجات المملكـة الملحة · وقـد ظل قسم الفقر الذى قطعه الفرسـان المؤسسون على أنفسهم باقيا كقوة دافقة للفرد · ولكنـه لم يكن كذلك على المستوى الجماعى · فالأعلام البيضاء والصلبان الجديدة للفرسـان الداوية سرعان ما أصبحت رمزا للقـوة والثروة · وربما كان نجاح التنظيم متوقعا ، لانه أدمج الايويولوجيتين الكبيرتين فى ذلك العصر ـ الرهبنـة والفروسية · وكان عضو الداوية قادرا على ممارسـة معظم ميوله الطبيعية ـ التى كانت نتيجـة لبيئته

الاجتماعية ولتعليمه ـ تحت رعاية الكنيسة مع معرفته التامة بأن وظيفته العسكرية مكرسة لمجد الرب العظيم · وهنا كان ثمة ادماج للفروسية والأخلاقيات بالنسبة لأولئك الذين تبنوا رأيا أكثر جدية لمعنى الحياة المسيحية وواجبات النبيل المسيحى · وكان النبيل والفارس يقبلون فى شغف على الالتحاق بالتنظيم الجديد فى أوربا · على أمل ان يأتى يوم ينتقلون فيه الى هيئة أركانه ومجال نشاطه الأساسى فى المستعمرات المسيحية فى الشرق · أما أولئك الذين لم تكن مشاعرهم قوية بالقدر الذى يدفعهم الى الالتحاق بالتنظيم لمدى الحياة سرعان ما كانوا يجدون الوسيلة التى تمكنهم من الالتحاق به بشكل مؤقت حيث يخدمون لعدة سنوات · وكان الشعار المرسوم على لواء الداوية ، البوسان Beauseant · يحمل آية من المزامير تقول : « ليس لنا ، أيها الرب ، ليس لنا ولكن لاسمك امنح المجد » ·

وسرعان ما خرجت اسطورة تحكى عن العراقة الاعجازية للتنظيم ولم يعد Hugh de Payns هو مؤسسه وانما أرجعت أصول هذا التنظيم عبر الزمان الى الف ومائتى سنة الى أيام المكابيين الذين أعادوا تأسيس الهيكل وتولوا الدفاع عنه · فأولئك الأبطال الوطنيون اليهود الذين حرروا بلادهم من الحكام الهيللنستيين فى سوريا فى القرن الثانى قبل الميلاد ، والذين طهروا بيت المقدس واعادوا بناء الهيكل قد صاروا أسلافا للفرسان الداوية ·

وكان لظهور الداوية ونجاحهم المدوى انعكاساته السريعة داخل تنظيم القديس حنا · فهذا التنظيم الذى كان قد تأسس منذ جيل مضى كان عليه ان يواجه منافسة قوية بسبب حرارة القبول الذى لقيه التنظيم الجديد تنظيم الداوية · وقد واجه الاستبارية هذا التحدى بأن أضافوا أعباء عسكرية الى التزاماتهم ، وسرعان ما أخذت الرايات السوداء

والصلبـــان ذات النقط الخمس مكانهـا كعـلامة مميزة لفرق الاسبتارية وســـوف تشكل ، ليس فقط جـــزءا من جيش المملكة ، وانما أصبحت ـ وهى وفرق المنظمات الأخرى ـ تشكل جيش المملكة الضارب · وحين تكون هناك ضرورة لتعبئة الجيش الاقطاعى لمواجهة أية طوارىء ، تكون نظم الرهبنة العسكرية جيشا من الفرســـان المتأهبين دائما والمستعدين دائما للعمل ·

ومنذ منتصف ثلاثينيات القرن الثانى عشر لم يقم التنظيمان فقط بامداد المملكة بالفرق العسكرية ، ولكنهما أيضا كانا منوطين بالدفاع عن المواقع العسكرية الرئيسية · فالنقط القوية والابراج والحصـون سلمت جميعها للتنظيمين · وما لبثت شبكة الطرق والمواصلات كلها أن خضعت لدورياتهم التى تولت أعمال الحراسة · فضلا عن أنه منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ومع تفاقم التهديد الاسلامى ، تمركزت فرســـان الداوية والاستبارية فى القلاع والحصـــون الضخمة التى كانت تحمى حدود المملكة والمستوطنات الصليبية الشـــمالية · ففى امارة انطاكيـة ومقاطعة طرابلس ، كانت مناطق الحدود كلها تقريبا مواجهـــة بالدول الاسلامية وتولت حراستها فرق الفرســان من نظم الرهبنة العسكرية · وفى ظروف المستوطنات الشمالية خلقت نظم الرهبنـة العسكرية دويلات مستقلة لها سياستها الخارجية المستقلة · وكان على الأمراء الصليبيين أن يعترفوا بأن معاهداتهم مع المسلمين المجاورين لن تكون سارية المفعول بدون موافقة نظم الرهبنة العسكرية ·

وازاء الأهمية المتزايدة لنظم الرهبنة العسكرية وقوتهـا وثروتها المتنامية يعجب المرء لما حدث للمثل الراقية فى نكران الذات والفقر وهى المثل التى كانت تتأكد بقوة بألقاب مثل « فرســـان المسيح الفقراء » أو « خدام الفقراء والمسيح » ·و من خلال الامتيازات والهبات أصبحت النظم العسـكرية ثرية ، فقد كان الاســـتبارية يملكون ثمانى عشرة ضيعة فى

أوربا · أما الداوية الذين كانوا لا يكادون يقلون عنهم ثراءا فمن سخرية الأقـــدار انهم أصبحوا صيارفة أوربا الكبار فى القـــرن الثانى عشر ويتنافســـــون مع البيوت الماليـــة فى ايطاليا بل ومـــع اللمبارويين Lombards و Cahorsins أشـــهر مـــرابيى العصـــــور الوســـطى · فمن ناحية ، كانت ســـلامة حصونهم وابراجهم ذات الحراســـة القوية والمسماة بالمعابد على سبيل الاختصـــار ، تضمن أمن الودائع ، كمـــا ان مكانتهم كأعضاء فى الكنيسة حولت املاك النظم الى ملاذ وملجأ ضـــد التدخل العلمانى · ومن ناحية أخرى ، ســـهلت فروع التنظيمات العديدة عملية نقل الالتزامات والديون من مكان لمكان دون نقل المال نفســـه عبر الطرق والبحار المحفوفة بالأخطار · فالودائع والمنقولات كانت تدر ربحا ، على حين استخدم رأس المال السائل المتراكم فى اقراض الملوك والأمراء · والا غرو ، اذن ، فى أن أوربا كانت تكيل المديح وتصب اللوم على هـــذه التنظيمات فى آن واحد · فقد كان المديح يوجه الى شـــجاعة أعضائها ، ومهاراتهم العسكرية واخلاصهم للعالم المسيحى · ولكن هذا الثناء كان يقابله انتقادات مريرة لثراء هـــذه التنظيمات وأطماعها وادانة للصراع الذى كان يضعف من استقرار المملكة الصليبية ويؤثر على استمرارها فى الوجود ·

ولـــم يؤسس الاســـبتارية أو الداوية دويلات مستقلـــة فى أماكن المستوطنات الصليبية الأصلية ، ولكن الداوية أصبحوا تقريبا هم حكام قبرص فى القرن الثالث عشر ، على حين كان الاسبتارية يحكمون رودس ومالطة حتى فتحها نابليون · ولكن ثمة تنظيم مشابه كان ينمو فى بطء مكونا تنظيما جديدا مع نهاية القرن الثانى عشر ، الا أن مصيره كان مختلفا · فقد واجهت سوريا ولبنان والأرض المقدسة ـ التى كانت أرض الهجرات والاستعمار الصليبى ـ مشكلة اندماج القادمين الجدد · فقد كانت سيادة العنصر الفرنسى الاجتماعية والثقافية شاملة تقريبا · وعلى الرغم من

أن اللغة اللاتينية كانت تستخدم فى المراسلات ، فقد كانت اللغة الفرنسية منذ البداية هى اللغة التى يتحدث بها السكان · وكان الايطاليون يتكلمون بلهجاتهم فيما بينهم ولكنهم كانوا يستخدمون الفرنسية فى اتصـــالاتهم الخارجية · وبينما كانت اللغة الفرنسية المستخدمة فى وسط وجنوب فرنسا هى اللغة المستخدمة فى المملكة اللاتينية ، كانت انطاكية تستخدم الفرنسية النورماندية ، على حين استخـدمت طرابلس الاوكسيتانيـة Occitan أو البروفنسالية · وظهرت مواقف لم يكن استخدام اللغة الفرنسية فيها كافيا ؛ فقد كان المرضى والحجاج ، لا سيما العامة منهم ، يبحثون عن أحد يتحدث بلغتهم الوطنية · وفى مثل هذه الظروف نشأت فى القرن الثانى عشر مستشفى ومجموعة علاجية مكرسة لسان مارى ، التى هى جزء من تنظيم القديس حنا ، وهو ما أصبح نقطة تجمع للحجاج المتحدثين باللغة الألمـانيـة ·

وكان المستشفى الألمـــانى ، على الرغم من كونه جزءا من تنظيم القديس حنا ، يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى · فقد كان له رئيسه الخاص · وقد توقفت أنشطته بسقوط القدس فى يد صلاح الدين عام ١١٨٧م · وقد أثار سقوط العاصمة أوربا أوربا فأخذت تنظم حملة عسكرية جديدة هى الحملة الصليبية الثالثة ·وفى أثناء الحصار الذى استمر حول عكا لمدة ثلاثة أعـــوام وبين آلاف الجرحى الذين أصيبوا فى المعارك أو المرضى الذين سقطوا بسبب المنـاخ أو الجـــوع ، ظهرت الحاجة الى مستشفى خاص للعناية بالصليبيين المتحدثين بالألمـانية فقام التجار والبحارة الوافدون من البحر البلطى ،وبريمين وهامبورج ، بتأسيس مستشفى ميدان أولى ، وهو عبارة عن مبنى خشبى تم بناؤه من أخشـــاب السفن المحطمة وتحميه أقمشة الأشرعة من الشمس والمطر · وعندئذ ، كما حدث منذ مائة سنة قبل ذلك فى تنظيم القديس حنا ، كرست مجموعة من الفرسان والقساوسة

الألمان انفسهم لعمل الخير ، وبعد ذلك بسنوات قليلة صارت المؤسسة الأولية نظاما عسكريا جديدا هو نظام الفرسان التيوتون ، فرسان سان مارى التيوتون الذى مزج الأغراض العسكرية بالخدمات الخيرية ٠

وهكذا اصبحت التنظيمات الثلاثة تتحكم فى العالم الصليبى فى القرن الثالث عشر ، وبينما كانت الاسبتارية والداوية يحافظون على هويتهم العالمية صار التنظيم التيوتونى الأداة الفولاذية للتوسع الألمانى ٠ وشارك الفرسان التيوتون ، كما هو الحال بالنسبة لفرسان التنظيمين الآخرين ، فى جميع الحروب والحملات العسكرية فى الأرض المقدسة ، فقد استحوذوا على الأرض والقلاع مثل قلعه مونتفورت Montfort فى الجليل ، بيد ان قلوبهم كانت فى مكان آخر ، فان روابطهم المباشرة مع المانيا قد وجهتهم تجاه المانيا الشرقية بدلا من المسيحية الشرقية ٠ وقد حاولوا دون جدوى ان يقيموا لأنفسهم رأس جسر فى هنغاريا ، ولكن عندما دعاهم كونت ماسوفيا Masovia البولندى (١٢٣١) تمركزوا بنجاح فى حزام بروسيا البلطيقى واضعين بذلك أساس مملكة بروسيا فى المستقبل وحجر الزاوية فى المانيا الامبراطورية ٠

وسرعان ما وجد مفهوم المقاتل ـ الراهب سلسلة من المقلدين ٠ فثمة نظام عسكرى على وجه الخصوص ، على الرغم من انه لم يصل ابدا الى مكانة التنظيمات الكبرى ، له من الغرابة ومن نمطية بيئة الصليبى ما يجعله جديرا بالاهتمام ٠ هذا التنظيم هو تنظيم سان لازاروس St. Lazarus الذى قام فى بيت المقدس فى منتصف القرن الثانى عشر ٠ ويشير اسمه الى سماته وخاصيته المتميزه ، لأنه كان تنظيم الفرسان المجذومين فقد كان مرض الجذام الرهيب مرضا بلا علاج ، ويبدو أنه كان منتشرا فى الشرق الأدنى ، ولأنه كان يعتبر مرضا معديا فقد كان ضحاياه يعزلون عن العالم خارج أسوار المدينة وبوابات القلعة ٠ وقد توصل الصليبيون الى حل آخر ٠ هو مستشفى مغلق خارج القدس

ولكن ملاصق لأسوارها وأصبح مستعمرة للمجذوبين · ولكن فرسانه وعامته نظموا انفسهم فى تنظيم عسكرى · ويمكن للمرء ان يتصورهم وهم يهاجمون المسلمين ، ويبثون الرعب بسبب بسالتهم العسكرية من ناحية ، والتهديد بالعدوى من ناحية أخرى ·

ويجب ان نمر سريعا على التنظيمات الأصغر التى قامت فى المملكة الصليبية ـ مثل التنظيمات العسكرية للفرسان الايطاليين أو التنظيم الانجليزى لفرسان سان توماس الكانتبورى ـ على الرغم من أن أيا من هذه التنظيمات لم يلعب ابدا دورا رئيسيا فى المملكة · والأهم من ذلك تلك الحقيقة القائلة بأن الفكرة التى نبعت اصلا فى الأرض المقدسة ، تمسكت بها أوربا ، وبالاضافة الى التنظيمات الدولية الكبرى ، ظهرت نظم رهبة عسكرية محلية ، لا سيما فى الأراضى التى واجهت عدوا مسلما أو وثنيا · وهكذا ، فان اسبانيا والبرتغال ، ثم ليتوانيا وبولندا فيما بعد ، كانت لها تنظيماتها المماثلة التى قامت على غرار المثال الفلسطينى · وقد لعبت بعضها دورا فى تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية ، بينما لعب البعض الآخر دورا فى تاريخ شرق البلطيق · فقد كانت هذه التنظيمات العسكرية قوة محورية للملكية التى استعانت بها فى بناء الدولة والمجتمع فى جميع الاحوال تقريبا · واختفاؤها عند غروب شمس العصور الوسطى أو بداية حركة الاصلاح الدينى لم يثر أى احتجاج لدى الرأى العام · فمنذ ذلك الحين لم تعد الرهبنة والفروسية ذات أهمية · وفى القرن السادس عشر نزل سرفانتس Cervantes بالفارس العظيم الى مجرد دون كيشوف ، الفوضوى المضلل الذى قام بمغامراته فى عصر يصف الفارس الدنيوى ، الذى ينكب على الحياة الناعمة ويبحث عن النهضة ·